الفصل الثاني عشر
غزوة تبوك
رجب ٩ هـ

المبحث الأول
ملخص الغزوة

وسببها أن الروم قد جمعت جموعًا كثيرة بالشام ضمت قبائل لخم، وجذام، وعاملة، وغسان، وهي من نصارى العرب، وكان قصد هرقل من ذلك، الهجوم على المدينة والقضاء على الدولة الناشئة في جزيرة العرب التي أخذت أخبارها وأخبار انتصاراتها تثير جزع هرقل وخوفه، فندب رسول الله الناس للخروج، وكان الوقت وقت عسر شديد وحر شديد، فانتدب المؤمنون الصاقون عن طيب نفس، وتخلف ثلاثة منهم من صادقي الإيمان، وندب رسول الله ﷺ الأغنياء لتجهيز جيش العسرة، فجاؤوا بأموال كثيرة؛ جاء أبوبكر بماله كله، وجاء عمر بنصف ماله، وتصدق عثمان يومئذ بمال كثير، وجهز ثلث الجيش ..

وسار رسول الله ﷺبالناس ومعه ثلاثون ألف مقاتل، ومن الخيل عشرة آلاف، وكان هذا أعظم ما رأته العرب حتى ذاك، ثم واصل سيره حتى بلغ تبوك، فأقام فيها نحوا من عشرين ليلة، ولم يلق فيها كيدًا، ولم يدخل حربًا١.

المبحث الثاني
آداب الحروب

المطلب الأول : الحرب الاستباقية:

وصلت الأنباء للنبي ﷺ من الأنباط الذين يأتون بالزيت من الشام إلى المدينة أن

١ انظر تفاصيل هذه الغزوة في : ابن هشام ٤/ ١٥٩، والطبري ٣/ ١٤٢، وابن سيد الناس ٢/ ٢١٥، و ابن القيم : زاد المعاد ٣/ ٣، المقريزي: ٤٤٥، ومصطفى السباعي ٣٠.

الروم جمعت جموعا وأجلبت معهم لخم وجذام وغيرهم من مستنصرة العرب،وجاءت في مقدمتهم إلى البلقاء١ فأراد النبي ﷺ أن يغزوهم قبل أن يغزوه٢ ..

إن ذلك يبين مدى الفقه العسكري لدى القيادة الإسلامية التي تقرر مثل هذا القرار، إن القيادة الإسلامية على مدار السيرة المباركة لا تنظر حتى يباغتها العدو في عقر دار المسلمين ..

المطلب الثاني : التجهز للغزوة والرغبة الشعبية في التطوع والجهاد :

ولم يكن من المسلمين أن سمعوا صوت رسول اللهّ ﷺ يدعو إلى قتال الروم إلا وتسابقوا إلى امتثاله، فقاموا يتجهزون للقتال بسرعة بالغة، وأخذت القبائل والبطون تهبط إلى المدينة من كل صوب وناحية، ولم يرض أحد من المسلمين أن يتخلف عن هذه الغزوة ـ إلا الذين في قلوبهم مرض وإلا ثلاثة نفر ـ حتى كان يجيء أهل الحاجة والفاقة يستحملون رسول اللهّ ﷺ ؛ ليخرجوا إلى قتال الروم، فإذا قال لهم: {لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ} [التوبة:٩٢].

كما تسابق المسلمون في إنفاق الأموال وبذل الصدقات، كان عثمان بن عفان قد جهز عيراً للشام، مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها، ومائتا أوقية، فتصدق بها، ثم تصدق بمائة بعير بأحلاسها وأقتابها، ثم جاء بألف دينار فنثرها في حجره ﷺ، فكان رسول اللهّ ﷺ يقلبها ويقول: (ما ضَرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم) ، ثم تصدق وتصدق حتى بلغ مقدار صدقته تسعمائة بعير ومائة فرس سوى النقود.

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية فضة، وجاء أبو بكر بماله كلّه ولم يترك لأهله إلا اللهّ ورسوله ـ وكانت أربعة آلاف درهم ـ وهو أول من جاء بصدقته. وجاء عمر بنصف ماله، وجاء العباس بمال كثير، وجاء طلحة وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة، كلهم جاءوا بمال. وجاء عاصم بن عدي بتسعين وَسْقًا من التمر، وتتابع الناس بصدقاتهم قليلها وكثيرها، حتى كان منهم من أنفق مُدّا أو مدين لم يكن يستطيع غيرها. وبعثت النساء ما قدرن عليه من مَسَك ومعاضد وخلاخل وقُرْط وخواتم.

ولم يمسك أحد يده، ولم يبخل بماله إلا المنافقون "الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ

١ البلقاء: بين الشام ووادي القرى عاصمتها عمان.

٢ انظر: ابن سعد ٢/ ١٦٥

الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ"[التوبة: ٧٩]١.

المطلب الثالث: ممارسة الشورى في غزوة تبوك

مارس رسول الله ﷺ في هذه الغزوة الشورى وقبل مشورة الصدِّيق والفاروق في بعض النوازل التي حدثت في الغزوة ومن هذه النوازل٢:

أولاً: قبول مشورة أبي بكر الصديق في الدعاء حين تعرض الجيش لعطش شديد:

قال عمر بن الخطاب: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعتصر فرثه فيشربه، ثم يجعل ما بقى على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيرا، فادع الله، قال: «أتحب ذلك؟» قال: نعم، فرفع يديه فلم يردهما حتى حالت السماء فأظلت ثم سكبت فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر٣

ثانيًا: قبول مشورة عمر بن الخطاب في ترك نحر الإبل حين أصابت الجيش مجاعة:

أصابت جيش العسرة مجاعة أثناء سيرهم إلى تبوك، فاستأذنوا النبي ﷺ في نحر إبلهم حتى يسدوا جوعتهم، فلما أذن لهم النبي ﷺ في ذلك جاءه عمر ﷺ فأبدى مشورته في هذه المسألة، وهي أن الجند إن فعلوا ذلك نفدت رواحلهم وهم أحوج ما يكونون إليها في هذا الطريق الطويل، ثم ذكر ﷺ حلا لهذه المعضلة وهو: جمع أزواد القوم ثم الدعاء لهم بالبركة فيها، فعمل ﷺ بهذه المشورة حتى صدر القوم عن بقية من هذا الطعام بعد أن ملأوا أوعيتهم منه وأكلوا حتى شبعوا٤.

ثالثًا: قبول مشورة عمر ﷺ في ترك اجتياز حدود الشام والعودة إلى المدينة:

عندما وصل النبي ﷺ إلى منطقة تبوك وجد أن الروم فروا خوفًا من جيش المسلمين، فاستشار أصحابه في اجتياز حدود الشام، فأشار عليه عمر بن الخطاب –رضي الله عنه – بأن يرجع بالجيش إلى المدينة وعلل رأيه بقوله: إن للروم جموعا كثيرة وليس بها أحد من أهل الإسلام، ولقد كانت مشورة مباركة؛ فإن القتال داخل بلاد الرومان يعد أمرًا صعبًا، إذ إنه يتطلب تكتيكًا خاصًا لأن الحرب في الصحراء تختلف في طبيعتها عن الحرب في

---

١ انظر: صفي الرحمن المباركفوري: ٣٣٦،٣٣٧

٢ انظر : علي محمد الصلابي ٢/ ٤٦٢

٣ ابن حبان، كتاب الجهاد، باب غزوة تبوك (١٧٠٧)

٤ انظر : علي محمد الصلابي ٢/ ٤٦٢

المدن، بالإضافة إلى أن عدد الرومان في الشام يقرب من مائتين وخمسين ألفـًا، ولا شك في أن تجمع هذا العدد الكبير في تحصنه داخل المدن يعرض جيش المسلمين للخطر١

إن ممارسة الشورى في حياة الأمة في كل شئونها السياسية والعسكرية والاجتماعية... إلخ منهج تربوي كريم سار عليه الحبيب المصطفى ﷺ في حياته.

المطلب الرابع : الدروس التربوية العملية لجند الله :

مر الجيش الإسلامي في طريقه إلى تبوك بالحِجْر ـ ديار ثمود الذين جابوا الصخر بالواد، أي وادي القُرَى ـ فاستقي الناس من بئرها، فلما راحوا قال رسول اللهّ ﷺ:" لَا تَشْرَبُوا مِنْ مَائِهَا شَيْئًا ، وَلَا تَتَوَضّئُوا مِنْهُ لِلصّلَاةِ وَمَا كَانَ مِنْ عَجِينٍ عَجَنْتُمُوهُ فَاعْلِفُوهُ الْإِبِلَ وَلَا تَأْكُلُوا مِنْهُ شَيْئًا"٢، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها ناقة صالح رسول الله٣.

وعن ابن عمر قال: لما مر النبي ﷺ بالحجر قال:" لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ"٤، ثم قَنعَ رأسه وأسرع بالسير حتى جاز الوادي.

وهذا منهج نبوي كريم في توجيه القائد جنوده إلى الاعتبار بديار وآثار الغابرين والهالكين، وأن يتذكروا بها غضب الله على الذين خالفوا منهجه، وألا يغفلوا عن مواطن العبرة برسومها الدارسة، وأطلالها القديمة، ونهاهم عن الانتفاع بشيء مما في ربوعها، حتى الماء لكيلا تفوت بذلك العبرة، وتخف الموعظة، بل أمرهم بالبكاء، وبالتباكي، تحقيقا للتأثر بعذاب الله، ولو أنهم مروا بها كما نمر نحن بآثار السابقين، لتعرضوا لسخط الله، فإن الغابرين شهدوا المعجزات ودلائل النبوة، وعاينوا العجائب، لكن قست قلوبهم فاستهانوا بها، وحق عليهم العذاب، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون من نقمة الله وغضبه٥.

---

١ انظر: محمد أحمد باشميل : غزوة تبوك ، ص١٧٦، ١٧٧.
٢ ابن هشام ٢/ ٥٢١
٣ صفي الرحمن المباركفوري ٣٣٨
٤ صحيح البخاري، كِتَاب أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ(٣١٣٠)
٥ علي محمد الصلابي ٢/ ٤٣٧